

العلامة علي عثمان محمد صالح: صوفي في محراب الآثار السودانية

باحث

أ. إبراهيم الدلال

مستخلص :

يحاول هذا المقال تسليط بعض الضوء من منظور شخصي ، على شخصية البروفيسور علي عثمان محمد صالح، العالم الشهير ، وأستاذ علم الآثار بجامعة الخرطوم ، ومنجزاته الفكرية والاكاديمية. ويطلق المقال على علي عثمان باستحقاق لقب خليفة أساتذته القدامى المشهورين ، وذوي الأقدام الراسخة: وليام آدامز، وبيتر شيني ، وبرايان هيكوك. يركز المقال على نحو خاص ، على شخصية علي عثمان كمريد صوفي ، وكتلميذ وحواري للشيخ السمانى الطريق ، محمد الأمين الخاتم (راجل كركوج) التي تقع على النيل الأزرق على بعد نحو 300 كيلومتراً جنوب الخرطوم. ويحاول المؤلف أن يقيم بعض أوجه الشبه والمقارنة بين منهج علي عثمان كعالم آثار ، وبين مقتضيات حدسه كصوفي. ويخصص المؤلف جزءاً كبيراً من المقال للحديث عن اكتشاف علي عثمان للعاصمة التي بناها عيزانا ملك الحبشة في أرض مملكة مروى ، كما يقدم بعض المعلومات والإفادات حول ما يعتقد امتدادات أثرية لحضارة مروى بغرب السودان ، ظلت غير مكتشفة وغير مدروسة على نحو كافٍ حتى الآن.

كلمات مفتاحية: علي عثمان ، علم الآثار ، التصوف ، مروى ، عيزانا ، آثار الزنكور وجبل الحرازة بشمال كردفان.

Abstract :

This article proposes to shed some light from a personal perspective on the character as well as on the intellectual and academic achievements of Professor Ali Uthman Mohamed Salih, the renowned scholar and professor of archeology at the University

of Khartoum. The article deservedly assigned to him the title of heir to his famous and well established former teachers: William Adams, Peter Cheney and Brayan Haycock. The article lays a remarkable emphasis on the Character of Ali Uthman as a Sufi and a disciple and follower of the late Sammani Shaykh Mohamed El Amin El Khatem, the holy man of Karkoj on the Blue Nile, some 300 kilometres south of Khartoum. The author attempts to draw some similarities between the methodology of Ali Uthman as an archeologist , and his intuition as a mystic. The author dedicates a large portion of the article to Ali Uthman's discovery of the capital of the Ethiopian King: Ezana in Meroe, and also gives some accounts of what he assumes as hitherto unexplored or studied extensions of the Meroitic heritage in Western Sudan.

Key words: Ali Uthman, archeology, Sufi, Meroe, Ezana, Antiquities of Jabal Haraza and Zankor etc.

مقدمة :

أذهل الخواجات ، أثنى عليه أدامز وخلفه تشيني ، واحترمه شارلس بونيه ، وتنبأ له أستاذه هيكوك بمستقبل رائع ، وضعتة كامبردج في سجلها الذي يحتوي على 2000 عالم أثروا في القرن العشرين وامتد أثرهم إلى القرن الحادي والعشرين ، جمع بين طاقية الشريف الخاتم وكاب تشيني في محبة لا تعرف الفوارق بين المعاني الإنسانية فهو من خلفاء الشريف الخاتم (راجل كركوج)، وخليفة شيني في آن واحد، وهكذا تكون عظمة الرجال ، من قناديل الليل ومن أحباب الفقراء والمساكين ورجل ذكر بامتياز من رآه بالنهار وحُجب بظاهره ظنه علمانياً يتستر بعلم الآثار وأوابد الحضارات القديمة، كما كان الشيخ محمد محبوب الدوكالي - الولي الكبير - الذي قال عنه أبوبكر العتيق : (وكان يتستر بصناعة الحلواء بمدينة كنو). كان الشيخ الدوكالي عارفاً كبيراً وكان متمكناً من صناعة الكيمياء وفي مقدوره أن يحيل النحاس ذهباً، ولكنه أثر صناعة الحلواء زهداً في الدنيا وسترأ لحاله مع الله ، هو من أرومة قوم أنا أسميهم يواقيت السودان، إنهم المحس - النوبة - والخزرج - والعروبة

- والإفريقية - والحضارة في أسمى معانيها . العمل معه أشبه بالوجد الصوفي الشفيف، وهو رجل صاحب مرآيا كاشفة، من أحبه نسبه إلى الكشف الصوفي، ومن لا يحبه يعتبره أرواحي على علاقة بالجن و(النزائل)، وهو بين هذا وذاك إنسان كأروع ما يكون الإنسان . علي عثمان سفر نفيس جمع بين دفتيه تاريخ الحضارة السودانية بكل جمالها وسماحتها من العصور الحجرية، مروراً بكوش الخالدة ومروي الأفق المفتوح على إفريقيا والعالم، إلى رهبانية المسيحية الرائعة المسالمة، إلى إشراق الإسلام الحنيف. هو رجل ممتلئ بروحانية الطبقات التي هي عين روحانية السودان، هذا الوطن العربي الإفريقي ذو المعجونة النادرة. إنه ابن هذا الشعب الإكسيري ذي الكيمياء المتفردة - تربال وعلامة ورجل تكايا ودرويش بطران ، بسيط إلى درجة الطفولة صعب المراقبي إذا جالس كبار العلماء وزاحمهم في آفاق مدارات المعارف العالية .. جمع فأوعى وشرب عصارة المعارف ونفذ إلى الخلاصات فصار على حد قول بدوي الجبل :

وأوجز في قارورة العطر روضة* * وأوجز في كأس الرحيق كروم

إذا جلس بين النوبة وراطنهم صار ملكاً وإذا جالس العرب صار سيدهم تجري في عروقه دماء الشرف النبوي الكريم .. بخبرة الآثار العجوز الذي ينضج الأسئلة على النار الباردة، قرأ الترجمة الصحيحة لنقش عيزانا وتلك كانت ترجمة جمال محمد أحمد (قبالة الخليج) وليس عكس الخليج التي ضللت الباحثين ، وبعد جهد مضن وصل علي عثمان إلى مدينة عيزانا وكان في حالة أقرب إلى الجذب وهو يمدح بالبطانة ، وقد بدأ لتلامذته يهتفون حينما رأوا أطلال المدينة في الوادي السحيق، وكان علي أشبه بدليل لقافلة أشرفت على الهلاك وقد أوردتها مشرعاً مجهولاً في غياهب صحارى التاريخ ، وكان كشف مدينة عيزانا فتحاً أثرياً ودينياً وربما كان كشفاً صوفياً لأن الله أعمى عنها عيون الآثاريين على كثرتهم، ولم يطلع عليها جيرانها حتى اكتشفها البروفيسور علي عثمان محمد صالح ، قال لتلامذته وهو يصعد الجبل : (إذا توقف قلبي واصلوا أنتم) وهذا كلام رجل يضحى بحياته من أجل المعرفة، ومن أجل أن يكون السودان في مكانه المرموق بين الأمم. ، وجد رسومات الإبل وسيلة المواصلات في ذلك الزمان، ووجد نجمة داوود التي لمعت في آفاق نجران وغابت في ركاب وادي الضيقة ، ولك أن ترى امتداد الأثر السبائي داخل القارة حتى مدينة إفريقية بتونس التي ترمز إلى اسم إفريقش بن صيفي بن حمير بن سبأ الأكبر الذي سميت على اسمه القارة. وقد أورد المسعودي أن راهباً قبطياً عجوزاً أخبر أحمد بن طولون إن أصل ملوك

النوبة من حمير ، وهذه الواقعة التي أوردتها المسعودي ترجع إلى أكثر من ألف عام فتأمل ولك أن تتأمل أن بعض سكان الجبل الغربي بليبيا يتكلمون لهجة الدناقلة وأن بعض الفولاني يفهمون لهجة البجا وقد فهم سودانيُّ نيلي لهجات الولف والبنبرة القاطنين على ضفاف نهر السنغال. وتوجد كوش في الحوض الشرقي بموريتانيا، ويصنع (الكول) في كوش موريتانيا ، وامتد الأثر النوبي حتى زنجبار ويظهر القاموس النوبي جلياً في السواحيلية وغيرها من اللغات الإفريقية . واكتشاف مدينة عيزانا يحسم الجدل ويعمل على تأكيد فرضيات عبد الله الطيب والفتاح قريب الله حول هجرة الصحابة إلى السودان، وقد قدم العالمان الجليلان حججاً ناصعة ولكن الدليل الآثاري والكشف الذي قام به البروف سيكون جهيزة الخطباء وجهينة الأنبياء وما يبنيك مثل خير. وبحسه الآثاري العالي قال لطلابه وهو يقف على أطلال مدينة عيزانا: (أبحثوا عن الكهوف لأن صورة الإسلام في رؤوس الصحابة المهاجرين هي غار حراء وغار ثور) ، وقد ودع سيدنا عثمان الرسول ﷺ بغار ثور حيث أمره بالهجرة وأن تصحبه السيدة رقية ، وقد وجد البروف كهوفاً عجيبة ووجد صرراً وأسراً ليس هذا وقت إذاعتها ولكل مقام مقال. نشأ الفتى علي عثمان فلاحاً في بساتين النخل وحقول القمح، وكان بقريته مسجداً يغص بالمصلين والعباد وكانت جدته لأمه امرأة صالحة تحفظ القرآن بسبع روايات رغم أميتها وعجمتها وكانت تضيء كالقنديل وكان الفتى الشفاف علي يرى ذلك النور ويسألها مراراً (جدي ألا تحرقك هذه النار؟). تقع شخصية البروفيسور علي العجيبة بين (صفايات) الشيخ سلمان الطوالي وغزليات إسماعيل صاحب الربابة المكشوفة وبين التاريخ النوبي العظيم الذي أثرى المسيحية وأعطى الإسلام ألقاً جديداً ظهرت إشرافاته في السلطنة الزرقاء وفي إسلام الطبقات الذي يمثل الروحانية السودانية في أسْمى تجلياتها .. والشعب النوبي العظيم هو الذي أدخل الإسلام والعروبة إلى السودان طوعاً واختياراً، وهم الوحيدون الذين تصدوا للفتح عنوةً (رماة الحدق) وارتضوه صلحاً (اتفاقية البقط) وبرهنوا في كلتا الحالتين على عنصرهم المذهب ، فالنوبة شعب حضاري لا يقبل العنصرية بأي حال من الأحوال .وأثار الزنكور والحرازة تدل على امتداد مروي داخل السودان وفي عمق القارة الإفريقية ، ففي الحرازة حيث مصاهر الحديد، وجدت سبيكة النحاس التي صنعها الكوشيون قبل آلاف السنين ولم يهتد لها العالم لم تحضر إلا في القرن الثامن عشر ، ووقفت

على أطلال حضارة الزنكور وكنت أمر عليها كما مر عليها الهباتي زويد
وهو يطرد قراناً ثقيلاً من الإبل وهو يردد :

يوم الثانيه خطمن حلة الزنكور

ويوم الثالثه حدرن فوق جبال دارفور

ولا تزال خارطة الآثار السودانية مترامية الأطراف وبعض الآثار بكرٌ لم تُفُض أسرارها بعد ولم يقف عليها الآثاريون ، وكنت قد كتبت عن المصورات الغربية في (أبو سفيان) و(تقرو) .. وأخبرني الأستاذ الثبت تكراس الميذوبي أن بشمال دارفور إهرامات ووعدني بالذهبة إليها من أجل التوثيق ، وعرفت منه أن أهلنا الميذوب كانوا يمارسون حجاً وثنياً يقفون في يوم التاسع من ذي الحجة على جبل مخصوص ويفيضون إلى جليل أشبه بالمشعر الحرام وينحرون الخراف ويمارسون الطواف وهذه الطقوس ربما نقلها لهم عرب الجاهلية الذين وفدوا إلى السودان قبل الإسلام، وربما أخذها هذا الشعب النوبي العظيم من مكة مباشرة في عهود سحيقة وفي ذلك مؤشر قوي لعلاقة النوبة القديمة بالحجاز ربما منذ عهد الخليل وإسماعيل .بدأ البروفيسور علي في تقديم سلسلة محاضرات توثق للحضارة السودانية سجلها لوكالة السودان للأنباء وقد (بنت) لنا (سيرة) هذه السلسلة ودعا لها مجموعة من جرائق علماء الآثار الغربيين الذين عملوا بالسودان من أمثال بونيه وجلبونسكي وغيرهم .وقد حدثنا راهب الآثار السودانية شارلس بونيه حديث العارف عن عظمة كرمة وتحديداً (دوگي قيل) (إرم ذات العماد السودانية)، التي لا يوجد لها ضريب أو أي شي يقاس عليه في كل آثار الدنيا، وقد قال بونيه بالحرف الواحد عن تاريخ الحضارة السودانية وهو يتحدث عن هذه المدينة : the greatest history in the world هذا الرجل جدير بالاحترام وقد نعتة العلامة علي عثمان بالرجل العظيم وملك كرمة وهو يستحق هذه النعوت .وسونا إذ تقوم بهذا العمل الجليل، فإنها تدرك أهمية الآثار في تحسين الصورة الذهنية للسودان، وتدرك الجدوى الاقتصادية المؤكدة للسياحة الأثرية . وقد كان البروف علي عثمان (راس القايدة) في موضوع الحوار حول الهوية وقد أبلى بلاءً حسناً في هذا المضمار. والذي أود أن أقوله هو أنَّ الصراعات التي أقعدت السودان، لن تحلها الجيوش، وإنما يحلها العلماء والمثقفون من أمثال البروفيسور علي عثمان محمد صالح. وفي الختام أقول إن

علي عثمان ثروة قومية وكنز معرفي لا يقدر بثمن وهو مؤهل ظاهرياً وباطنياً لقيادة الأعمال النافعة. أطال الله عمره وفي عمره خير كثير للعباد والبلاد.. وأرجو أن يُكرّم هذا العالم الجليل والبحر المتلاطم وفي تكريمه تكريم لكل علماء السودان ووفاء لأرواح الأسلاف الذين أشادوا عظمة تاريخ السودان العظيم.